

IV - الجنس في أعمال جلال الدين السيوطي

دراسة وتحقيق : للأستاذ حسن أحمد جغام
الطبعة الأولى جانفي 2001 دار المعارف للطباعة
والنشر بسوسة. 397 ص.

هذا الكتاب : هو عبارة عن دراسة حول موضوع، كان إلى عهد ليس ببعيد من المواضيع المحرمة في المجتمع العربي الإسلامي، وهو موضوع الجنس. والكتاب عبارة عن دراسة مدعمة بمجموعة من النصوص حاول الباحث تقديمها تقديمًا علميًا لا يخلو من نقد بناء في أسلوب واضح وصريح. والنّاظر إلى الكتاب يجد فيه :
أ- تقديم قام به الأستاذ محمد بنيس (من ص 5 إلى ص 11) عالج فيه بدقة وإيجاز قضية الجنس في الثقافة العربية الحديثة.

ب- مقدمة المؤلف الأستاذ حسن أحمد جغام (من ص 15 إلى ص 28) اعترف فيها أنه وضع نفسه في موقع لا يُحسد عليه بتأليفه هذا الكتاب في الجنس. فقد عرضها للنقد والانتقاد معاً، لتعقد الموضوع من جهة وللفكر السلبيّة المنتشرة حول هذا الموضوع في أغلب المجتمعات العربيّة التقليديّة من جهة أخرى. ولعلّ هذين السببين هما اللذان شجّعا على اقتحام هذا الميدان. فالمسألة الجنسيّة في نظره مسألة في غاية الأهميّة : فهي مرتبطة بحياة الإنسان الصحيّة والنفسيّة من جهة، وبغرائزه وعواطفه من جهة أخرى. ولهذا السبب تصدّى لهذا الموضوع، زمن ازدهار الحضارة العربيّة، فطاحل العلماء، وأكثرهم من الفقهاء الذين جمعوا بين التخلّص في العلوم الدنيّة وبين معرفتهم بعلم آخرى كالطبّ والحكمة والكيمياء والأعشاب. والإسلام - كما أكّد صاحب المقدّمة - بُراء من تزمّت بعض علمائه ممّن يحرّمون الحديث في موضوع الجنس. فهذا الدّين الحنيف لم يزد أن وَضَعَ للعلاقة بين الرّجل والمرأة آداباً وقيماً حتّى

يواجه عادات إباحية وتقاليده جاهلية لا تتلاءم مع رسالته الأخلاقية النبيلة. فهذا نبيه محمد (صلعم) كان يتحدث في مواضيع الجنس بكل صراحة أخذاً بمبدأ " لا حياء في الدين ". فكان يجيب بكل وضوح عن كل سؤال من النساء أو الرجال عن أشياء لها صلة بحياتهم الجنسية ولها مساس في نفس الوقت بحياتهم الدينية. بعد هذا التقديم والمقدمة نجد :

1- الفصل الأول (من ص 31 إلى ص 78) : ترجم فيه للسيوطي وتعرض فيه لأهم مراحل حياته بايجاز : دراسة وتدريسا، تأليفا وتصنيفا. وهو بذلك أراد أن يتناول موضوع الجنس لدى عالم جليل يقر له الجميع بطول الباع في التأليف والتصنيف ألا وهو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمان السيوطي (ولد بأسبوط أو القاهرة سنة 849 / 1445 - وتوفي بالقاهرة سنة 1505/911). وهدفه هو أن يشجع بقية الباحثين لتناول موضوع الجنس في التراث العربي الإسلامي لدى غير السيوطي من المصنفين. وفي ذلك رد مباشر على بعض من يتبرأ، خطأ أو تزمنا، خداعا أو نفاقا، من طرق هذا الموضوع أو التأليف فيه. إن اختيار المؤلف للسيوطي نموذجا للمؤلفين في هذا الموضوع الخطير هو اختيار لا يخلو من ذكاء وتحذ في نفس الوقت.

2- الفصل الثاني (من ص 79 إلى ص 239) : تناول فيه المؤلف مصنفات السيوطي في الباه، وبدأ بالنوع الأول منها : وهي مؤلفات للسيوطي خصصها لموضوع الباه أولا وأخيرا، وعددها ستة : وهي شقائق الأترنج في رقائق الغنج، ونزهة المتأمل ومرشد المتأهل في الخاطب والمتزوج، ورشف الزلال من السحر الحلال أو مقامة النساء، والإيضاح في علم النكاح، والوشاح في فوائد النكاح، وأخيرا الأيك في معرفة النيك.

3- الفصل الثالث : تعرض فيه لمؤلفات السيوطي من النوع الثاني (من ص 243 إلى ص 353). وهي مؤلفات عالج فيها موضوع الجنس مع موضوعات أخرى وعددها ثمانية : هي نزهة الجلساء في أشعار النساء، والمستظرف في أخبار

الجواري، ونزهة العمر في التفضيل بين البيض والسود والسمر، وكتاب الرحمة في الطب والحكمة، وغاية الإحسان في خلق الإنسان، ولقط المرجان في أحكام الجان، والكنز المدفون والفلك المشحون، والمزهر في علوم اللغة وأنواعها. وختم هذا الفصل بذكر أربعة كتب في موضوع الجنس للسيوطي ولكنه لم يتمكن من الاطلاع عليها (من ص 351 إلى ص 353) وهي : كتاب الإفصاح في أسماء النكاح، وضوء الصباح في لغات النكاح، ومباسم الملاح ومناسم الصباح في مواسم النكاح، ونواضر الأيك في نواذر النيك.

هذا وقد أشار المؤلف (في ص 47 وما بعدها) أن للسيوطي نوعاً آخر من المؤلفات غير التي قدّمت في الفصل الثاني والفصل الثالث. وقد اطلع عليها المؤلف وتبين له أنها تعالج موضوعات جنسية بطريقة غير مباشرة وجاءت في أسلوب وعظي وإرشادي وهي تتحدث عن النكاح الحلال والسقاح الحرام. وجلّ هذه المؤلفات -حسب المؤلف- صنّفت لمعالجة قضايا فقهية ولكنها في كثير من الأحيان تكون ذات أسلوب إباضي صريح يمزج فيه السيوطي بين الهزل والجذ. من هذه الكتب : الدراري في أبناء السراري، والزهر الباسم فيما يتزوج فيه الحاكم، والمستطرفة في أحكام دخول الخشفة، ورسالة فضل الأغواث، ورسالة مشتهى العقول ومنتهى النقول، الروض الأريض في طهر المحيض وغيرها...

4- الفصل الرابع وخصّصه للفهارس حسب منهجية البحث العلمي الأكاديمي.

إن كتاب الأستاذ جغام يُقرأ بكثير من المتعة والإفادة وهو يجعلك، من خلال ما اختاره لنا من نصوص، تقرأ العديد من المؤلفات بدون كثير عناء أو بحث، ودون مضیعة لوقت ثمين. وهو يشجّع بإشاراته إلى بعض المخطوطات ومكان تواجدها على مواصلة الجهد الذي بدأه بتحقيق بعض هذه المخطوطات. أمّا المتخصّصون في اللغة، فيجدون في النماذج التي انتقاها المؤلف ما يدفعهم إلى الاطلاع على النصوص الكاملة ليتعرفوا على ثراء اللغة العربية، فيوجهون بحثهم إلى بعض المواضيع التي

لم يقع الاهتمام بها إلى حد الآن. وتتخلل صفحات الكتاب 8 لوحات لفنانين عالميين كبار تجسم فتنة الطبيعة وسحر الجمال وتوهج العاطفة.

إن متعة القارئ وهو يقرأ كتاب السيد جغام قد تجعله يلاحظ أن قائمة الصنف الأول من كتب السيوطي في الباه طويلة عند ذكرها في (ص 46) ناقصة عند تقديمها في الفصل الثاني. كما أن قائمة الصنف الثاني في (ص 47) تختلف عن القائمة التي جاءت في الفصل الثالث عند تقديمها. ولا ندري لماذا امتنع المؤلف عن تقديم بعض مؤلفات السيوطي من النوع الثالث واكتفى بذكرها في الصفحة 48 وما بعدها، خاصة وأن بعضها مطبوع وبعضها الآخر مخطوط في أماكن يمكن الوصول إليها. وأخيرا لم تجر العادة حسب منهج البحث العلمي بجعل الفهارس قسما من الكتاب فنُخصص لها فصلا من فصوله، وإنما الفهارس توضع في نهاية الكتاب بعد كامل أبوابه وفصوله.